فقه معاني الهدى في فضل الصيام والقيام بالقرآن(٢)

أ.د. محمود توفيق(*)

في الحلقات التي مضت سعيت إلى أن أبين بعض معاني الهدى المكنوزة في قول سيدنا رسول الله ﷺ: «الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٤).

أبنت عن بعض ما جاء به نظم هذه الجملة النبوية معدولًا بها عن الأصل: «يشفع الصيام والقرآن للعبد يوم القيامة» ولو أن سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلم – قال: «الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وسكت؛ لكان هذا كافيًا، ذلك أن كل ذي عرفان بلسان العربية يعلم معنى (الشفاعة)، وربما مارسها بنفسه أو مورست معه أو له، فقوله – صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه: (يشفعان) لا يحتاج السامع إلى أن يسأل عن معناه، أما السؤال عن كيفيات الأفعال والصفات، فلذلك ضوابط عواصم من القواصم:

إذا كان الفعل أو الصفة مما يتعلق بعالم الشهود، فذلك مما يصح السؤال عن كيفيته إذا ما احتيج إلى السؤال عنها.

وإذا كان الفعل أو الصفة مما يتعلق بعالم الغيب ولا سيما أفعال الله –تعالى– وصفاته، وشئون اليوم الآخر، فالأمر لا يستقيم السؤال عن (الكيفية)؛ فالعقل البشري لا يطيق تصور هذه الكيفية إن وصفت وبينت له؛ ذلك أن هذا العقل البشري له طاقات وإمكانات، ليس منها إدراك كيفيات الغيب.

ومن ثم كان السؤال عن كيفيات ما هو من عالم الغيب إنما هو خارج عن منطق العقل، كما هو خارج عن طاقته الإدراكية، إن لعقلك عليك حقًّا.

ولم يأت قوله –صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه –: «يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، قَالَ: (فَيُشَفَّعَانِ)(٥)» ليكون بيانًا لمعنى الشفاعة، ولا لكيفيتها، كلا، إنما هو بيان لما يشفعان به، فكأن السامع لما سمع قول سيدنا رسول الله– صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه–: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة» ثار في فؤاده تساؤل: (ماذا يقولان؟)، وليس (كيف يشفعان؟).

(*) عضو هيئة كبار العلماء.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو –رضي الله عنهما–، برقم: (٦٦٢٦).

(٥) سبق تخريجه.



فيأتي قوله -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلم -: «يقول الصيام ...إلخ» جوابًا عن ذلك السؤال، فكان بينهما ما يسميه البلاغيون «استئنافًا بيانيًّا» أو «شبه كمال اتصال» وهو سؤال عن غير السبب الخاص أو العام، كما يقول البلاغيون.

وقوله - صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه - :«يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، قَالَ: (فَيُشَفَّعَانِ)» جاء على ترتيب ما صدرت به الجملة الأم، بدأ بما يقول الصيام وتلاه بما يقول القرآن.

يأتي بيان النبوة ما يقول الصيام شفيعًا لمن كان له فعيلًا حفيظًا متقنًا، وبه إلى الله - سبحانه وبحمده - متزلفا في نظم بديع: «يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ»(٦).

تبصر قوله : «أَيْ رَبِّ» بكل ما يحمله هذا النداء الذي خرج من معناه الذي عهدت العرب استعماله فيه، فالأصل في النداء أن المنادي يطلب ممن يناديه أن يقبل إليه بقالبه «جسده» وقلبه، أي: أن ينتقل مما هو قائم فيه إلى حيث يكون المنادي، ومن ثم عده علماء البلاغة مما يسمى بـ«الإنشاء الطلبي» بناء على هذا الأصل الذي وضع عليه أسلوب «النداء»، ثم كثر استعماله في الإقبال القلبي دون القالبي: «الجسدي»، فقد ينادي المرء من هو بين يديه؛ ليقبل بعقله وفؤاده عليه؛ ليتلقى ما يخبر به أو يطلب منه، وهو يقظ متشوف، فيقع الخبر أو الطلب موقعًا أنيسًا في فؤاده، وهذا ما أنت تراه في نداء الله - سبحانه وبحمده - على الذين آمنوا، ينادي أولًا، ثم يأتي بالخبر أو الطلب، وهذا من فيض رحمته -جلَّ جلاله- وهو في القرآن كثير محكيًا عن الخلق، ثم ترقى، فاستعمل -أيضًا- في التحبب، والتودد، والإيناس، ونحو ذلك، ونداء العبد ربه -سبحانه وتعالى- من هذا الباب، ومن ثم لا يكون من قبيل «الإنشاء الطلبي» بل هو من قبيل «الإنشاء الإفصاحي».

والأساليب الإفصاحية المنبئة عما يعتلج في الصدور من المشاعر كالتعجب والتحسر والاستغراب والمدح والذم والتمني والتشوف والترجي ونحو ذلك في بيان العربية كثير، وكثير منه داخل فيما يسميه البلاغيون «الإنشاء غير الطلبي».



قول الصيام يوم القيامة: «أَيْ رَبِّ» إنما هو من قبيل التحبب والتودد والتزلف توطئة لما سيرفعه «الصيام» إلى مقام العزة من طلب الشفاعة لمن قام به في الدنيا وأخلص وأتقن.

وفي الإعراب باسم «الرب» لحظ إلى ما يكون من الله -سبحانه وبحمده- من ربابته هذه العبادة وتزكيتها، وتذكيتها وتعظيمها على قدر إخلاص صانعها وإتقانه.

(٦) أخرجه أبوداود في سننه عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، برقم: (١٤٠٠).

وكأني بالصيام لما رأى من صانعه ومتقنه والمتزلف به إلى ربه - سبحانه وبحمده - ما جعله ربيبًا مزكى آثر أن يكون له ما يجيب لصانعه في الدنيا ويكافئه به عليه من الشفاعة بين يدي الله -سبحانه وتعالى- الذي تزلف به إليه ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ (الرحمن: ٦٠)

فشفاعة الصيام يوم القيامة لمن اصطنعه وأتقنه في الدنيا من جليل المكافأة وجميلها.

تبصر كيف أن هذه العبادة تقوم من دون صانعها المتقن لها في الدنيا تزلفًا إلى رب العالمين هي التي تقوم تنافح عنه متضرعة مستجدية له غفرانًا وإحسانًا، وهو في مقام لو يفتدي المرء نفسه بكل ما يملك ما يقبل ذلك منه، ويأتي «الصيام» ليشفع له عند ربه - سبحانه وبحمده -.

يقوم «الصيام» متضرعًا، وصانعه مستشرف ما سيكون - يقوم الصيام: يقول: «أَيْ رَبِّ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ».

بين يدي استجدائه الشفاعة من ربه -سبحانه وتعالى- لمن اصطنعه عبادة تزلفًا يقدم الصيام ما يبين عن باعثه إلى أن يقوم شفيعًا له، فيجعل شفاعته إلى القبول أقرب: «مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ»:

في الإعراب بقوله: «منعته» ما يصور ما يلقاه الصائم من محاجزة عما فطر على مقارفته عن حاجة، فيستجيب الصائم مؤثرًا مراد محاجزة: «الصيام» على محبوب فطرته البشرية.

عبارة «منعته» تصور لك ما يكون بين «الصيام» ومقتضى الفطرة البشرية من الحوج إلى الطعام والشهوات، فيستجب الصائم، ويؤثر محبوب العبادة على محبوب الفطرة، صراع داخلي يعتلج، فينتصر الصائم لنداء العبادة على نداء الفطرة.

واحذر أن تشغل عن استحضار هذا الصراع في وعيك بالنظر في دعوى بيان نوع الإسناد في «منعته»: أحقيقة أم مجاز إسنادي أم استعارة؟

كل هذا هنا إذا جعلته المقدم بالعناية، فإنك لا محالة خاسر ما لا يستغنى عنه، مثل هذه التوركات العقلية في مثل هذا المقام إنما هو مفسد عطاء التلقي، بل هو وائده، فاجعل لفؤادك الغلبة في التلقي على التوركات العقلية في مثل هذا المقام.

وفي تقديم «الطعام» على «الشهوات» تقديم لما لا يستغنى عنه على ما يمكن أن يستغنى عنه، وكذلك تقديم ما هو أخص من وجه على ما هو أعم من وجه، فليس كل طعام شهوة، فقد يطعم المرء ما لا يشتهي كما أنه قد يشتهي ما لا يطعم، وفي «الطعام» حظ الجسد، وفي «الشهوات» حظ النفس.



ثم يرتب على ما صنعه الصيام بالصائم في دنياه بقوله: «فشفعني فيه» أي: فاقبل شفاعتي فيه. وهذه الشفاعة من الصيام عمود أمرها إسقاط ما على الصائم من تبعات، فهو إلى التخلية، كما كان الصيام تخلية عما يعيق العبد عن أن يكون إلى الله -سبحانه وتعالى- أقرب، ففعل الصيام تطهيري من المضار الحسية، والمعنوية، فشفاعته تخلية من المضار الأخروية، فكان ضربًا من المجانسة بين العمل وجزائه، وهذا قمن أن نتخذه منهاجًا في الحياة: أن يكون الجزاء مثوبة أو عقوبة مجانسًا العمل إن حميدًا أو غيره، فذلك منطق العدل.

ويأتيك بيان ما يقول القرآن شفيعًا: وقد صيغت شفاعته بما يلائم شأنه: «ويقول القرآن: منعته النوم بالليل، فشفعني فيه، قال فيشفعان» لم يقل: (أي رب) كما قال «الصيام»، ذلك أن القرآن كلام الله -سبحانه وتعالى- وكلامه -عز وعلا- صفته، ولذا لا يستقيم هنا أن يقال: (أي رب). كما قال «الصيام» من أن الصيام فعل العبد، فهو مخلوق، والقرآن كلام الله -تعالى- غير مخلوق، ومن ثم، فالرواية الأعلى ليس فيها: «أي رب» والتي فيها «ويقول القرآن: أي رب منعته النوم بالليل» فيها مقال، بل هي مطروحة ولسنا بحاجة إلى أن نؤول «القرآن» بالقراءة على نحو ما في قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾

(القيامة: ١٧، ١٨).

ولسنا بحاجة إلى أن نؤول «القرآن» هنا بأنه الصلاة، على سبيل المجاز المرسل؛ ليكونا معًا من فعل العبد: «الصيام» و«تلاوة القرآن».

روى أبو داود في كتاب «شهر رمضان» من سننه بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً، تَشْفَعُ لِصَاحِبِهَا حَتَّى يُغْفَرَ لَهُ: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ»، فهذا آية على أن الذي يشفع السورة.

ويشفع القرآن قائلًا: «مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ» وهذا آية على أنه ما يقرأ العبد في القيام ليلًا، ويدخل فيه قراءة القرآن من غير صلاة وقراءته في الصلاة أعلى.

وشفاعة القرآن تحلية في مقابل شفاعة الصيام، فبالقرآن تتضاعف الحسنات، وبالصيام تمحى السيئات.



وفي هذا من الحث على أن يكون للعبد نصيب وفير منهما معا، وكل امرئ يتخذ ما هو إليه أحوج: فمن كانت سيئاته هي الغالب، فعليه بالصيام تخلصًا مما يثقل كاهله، والجمع بينهما أمجد وأحمد.

ويأتي قوله: «فيشفعان» وقد بني الفعل لغير الفاعل؛ لما أن قبول الشفاعة لا يكون إلا من الله -سبحانه وبحمده- فالفاعل متعين ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (البقرة:٢٥٥)

وإذا ما كان الفعل متعينًا لا يصدر الفعل إلا منه، فالأصل ألا يصرح به، بل يبنى الفعل لغير الفاعل إلا لمقتض، كتربية المهابة أو التشرف أو التلذذ بذكره.

وفي هذا البيان النبوي حث بالغ على هاتين العبادتين: الصيام، وقيام الليل بالقرآن.

وإذا ما كان الصيام جنة للصائم، فإن قيام الليل بالقرآن جنته، وأهل القرآن ولا سيما القائمون به ليلهم، والضابطون به حياتهم هم أهل الله وخاصته.

ومن كان كذلك كان له كل شيء عونا له على طاعة ربه - سبحانه وتعالى - روى البخاري في كتاب «الرقاق» من صحيحه بسنده عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»(٧).

وليس بعد محبة الله -تعالى- عبده من طلبة لعاقل.

والله هو المستعان على طاعته.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (٦٥٠٢).